مشاهدات وانطباعات
يكتبها/ شائف الحسيني

الجزء الثالث
الحلقة العاشرة

ثلاثون يوماً في الصين:

أساطير صينية تحدد طرق بناء المعابد والقصور القديمة

□ ممران شبيهان بسجاد المراسم الذي يُفرش لاستقبال كبار ضيوف البلد، حيث يفضي إلى البوابات التي يدخل منها ممثلو القوميات والمواطنون والسفراء الأجانب لمقابلة الامبراطور.

وخلال الطريق الذي يوصل إلى صالة المقابلة تشاهد عشرات الأحجار المنحوتة على الجانبين كمباخر على شكل فوانيس يصعد منها دخان البخور الذي يوقد عند مرور الامبراطور وأثناء إقامة المراسم، وتمثال الأسد حارس الامبراطور وأشكال أخرى أشبه بالطوطم الذي يجسد شكل حيوانات برّية ترسخ في أذهان الشعوب القديمة أنها تناسخت فيها أرواح أجدادهم، إضافةً إلى قدور نحاسية ضخمة مفتوحة توزعت في أماكن متعددة لتخزين المياه التي قيل إنها تملأ به استعداداً لإطفاء أي حريق ينشب، خاصة وأن المدينة سبق أن تعرضت لحرائق في فترات سابقة.

□ القصر الامبراطوري الصيفي.. ضواحي «بيجين»

رقصات يمنية شبيهة برقصات صينية دليل التواصل الحضاري القديم

□ كرسي آخر امبراطور في الصين تويني ايشين

□ أحد التماثيل الاسطورية في القصر الصيفي

متحف «القصر» يحتفظ بأكثر من مليون قطعة من التحف القديمة والحديثة

ومن ضمن الطقوس التي أُخذت في الاعتبار عند البناء – وفقاً لأساطير صينية قديمة – وجود عتبات أمام الأبواب ترتفع بمقدار (٥٠) سنتيمتراً قيل إنها تمنع عبور الأرواح الشريرة إلى الغرف والصالات، كما نُبت على الأبواب نوع من المسامير المعدنية المكعبة وزعت في صفوف متوازية من اليمين إلى الشمال بشكل أفقي، وقيل إنها – أيضاً – وضعت للغرض نفسه، كالتمائم التي توضع على جدران المنازل وأبوابها، لصد الأرواح الشريرة، وهي اعتقادات سائدة في الحضارات الشرقية القديمة على وجه العموم ظلت موجودة حتى وقت قريب، وتتماثل هذه المسامير والرسومات الخرافية مع ما هو موجود على أبواب منازل بعض المدن اليمنية، خاصةً في محافظة حضرموت، وأعتقد أنها وضعت لنفس الغرض، إلا أن المسامير المستخدمة على أبواب المنازل في مدن محافظة حضرموت أقل سمكاً وبروزاً مما شاهدناه هنا، لكن الاعتقاد يظل واحداً، وهو طرد الأرواح الشريرة.

والسؤال الذي برز حينها في الذهن ونحن نقارن بين هذه الأساطير وما هو سائد في اليمن : هل انتقلت هذه الاعتقادات من إحدى هاتين الحضارتين إلى الأخرى؟ أم أنها خصوصية تجمع الحضارات الشرقية كافة؟ وهو ما يوحي به – إضافةً إلى ما سبق – وجود رقصات في محافظة حضرموت تسمى «نعيش»، وهذه الرقصات لها امتداد تاريخي قديم وتؤدى بين حين وآخر في المناسبات الغنائية والتراثية على وجه الخصوص، يظهر فيها الراقصون موشحين بالسواد ومنكوشي شعر الرؤوس يتمتعون بترانيم معينة تفسر بكونها رقصات طقوسية قديمة كانت تؤدى لطرد الشياطين والأرواح الشريرة، ويقال إنها جاءت إلى حضرموت قبل الإسلام عبر المغول والهند، ويوجد على العموم في هذه المدينة التي تعد ضمن قائمة التراث العالمي من التحف والنقوش والحكايات ما لا يستطيع زائر عابر تناوله وشرحه مفصلاً، لتعدد هذه المحتويات ووفرتها.

ويشار إلى أن هذا المتحف «متحف القصر» يحتفظ بما يُقدر بمليون قطعة متنوعة من التحف القديمة والحديثة التي تعد تاريخاً بذاتها، وربما أن أفضل وصف – في نظرنا – للمدينة المحرّمة «قصور الأباطرة» شكلاً ومضموناً، تاريخاً وسياسةً، إدارةً وحكماً، هو ما تضمنه الفيلم السينمائي الوثائقي للمخرج الإيطالي «برناردو برتولوتشي»، واسمه «آخر الأباطرة»، الذي صورت أحداثه ووقائعه داخل هذه المدينة نفسها بالاعتماد على عدد كبير من الوثائق التاريخية عن تلك المرحلة، فرسم بذلك صورة حية مدهشة عن واقع حياة آخر أباطرة الصين، والذي يتجسد من خلاله التاريخ الامبراطوري في الصين عموماً، وقد نجح هذا الفيلم نجاحاً كبيراً داخل الصين وخارجه، وحظي بشهرة واسعة، كما حصل على عدد من جوائز الأوسكار.

ومن أهم المشاهدات التي تستحق الإشادة والحديث عنها – قبل أن نغادر المدينة – هي تلك الصورة المثبتة على أحد جدران غرف الجناح الخاص في سكن الامبراطور، والتي يظهر فيها آخر أباطرة الصين «تويي»، وهو ممسك بالإبرة والخيط لتثبيت أزرار معطفه، ويحكي الشرح الموضح لها أنها تعود إلى فترة إقامته الجبرية في السجن، وقد أُخذت له للتعبير عن واقعه الجديد بعد الثورة، وتحظى هذه الصورة باهتمام الكثير من الزوار، كونهم يقارنون بين تلك الأبهة والعظمة في القصور الفاخرة والحدائق الجميلة وعرش الأباطرة وعظمتهم التي بلغت مرتبة القداسة وانحناء الرؤوس وخدمة الملايين لهم أينما حلوا وارتحلوا، وبين ما آلوا إليه بعد هذا الملك العظيم من حياة متواضعة شأنهم شأن أي مواطن عادي، بل إنهم أصبحوا في حالة من البؤس الشديد، فيتأكد من خلال تلك المقارنة لكل شخص لبيب حتمية زوال الملك وسلطة الفرد مهما طال الأمد، وأن كل ذلك إلى زوال ما دامت الحياة تتطور وتسير إلى الأمام.

كما ظهر الامبراطور في صور كثيرة أخرى مشابهة لذلك النمط المتواضع، مرة وهو يعمل في الزراعة، وأخرى وهو في مناجم الفحم مع العمال، وأحياناً وهو يتعلم الحياكة والخياطة.

وقيل إن السلطة الثورية بقيادة الرئيس «ماو» بررت أن وضعه في السجن بعد أن كان تحت الإقامة الجبرية في أحد أجنحة قصره في المدينة المحرّمة قبل ذلك هو لغرض تأهيله ليصبح مواطناً كسائر المواطنين، معتمداً على نفسه في الحياة دون حسنات أو خدم أو خصي أو أي شيء من ذلك كله بعد الآن، وكانت هذه خلاصة ونهاية الحكم الامبراطوري في أعظم بلد شهد مثل هذا النوع من الحكم على مدى ما يقرب من ألفي عام، (ونشرت هذه الصور وغيرها ومحتوياتها في كتاب صدر باللغة الإنجليزية عن مطابع اللغات الأجنبية في بيجين، الطبعة الثامنة، عام ٢٠٠٧م، تحت عنوان «من امبراطور إلى مواطن، لمؤلفه (WJF JENNER).

غادرنا مدينة القصور ونحن نستحضر معاني الآية القرآنية : «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (سورة آل عمران : ٢٦)، وتدور في أذهاننا الكثير من الأفكار والتأملات عما شاهدناه هنا، والتي استخلصنا منها أن الحكم مصيرهم إلى الزوال مهم طال أمد حكمهم – صالحين كانوا أم طالحين – وتبقى الشعوب هي الثابت دوماً، ولا يبقى لكل حاكم – طال حكمه أم قصر – سوى تاريخه، فإن ثقلت موازينه بما يحققه لشعبه تظل ذكراه عطرة وتاريخه مشرقاً وناصعاً للأجيال اللاحقة مدى الزمن، وإن خفت تلك الموازين فقد ذهب غير مأسوف عليه، وهذه إحدى سنن الحياة لو يعلمون، وها هي جماهير الشعب الصيني والزوار من كافة أرجاء العالم يجوبون داخل قصور الأباطرة وفي غرف نومهم واحدة تلو الأخرى، ولا أحد يقول لهم هذا ممنوع وهذا محرم، بعد أن كانت محرّمة لمئات السنين لا يجرؤ أحد من الناس على النظر إليها أو أن تطأها أقدامه.

زيارة إلى القصر الصيفي

□ يقع القصر الصيفي في إحدى ضواحي العاصمة الصينية بيجين من الجانب الشمالي الغربي على بُعد أربعين كيلو متراً تقريباً، وهو المقر الصيفي لإقامة الامبراطور وعائلته من أسرة «تشينغ» باعتباره متنفساً للنزهة أكثر من كونه مقراً للحكم، وشيِّد في الأصل لهذا الغرض منذ البدء، فجميع منشآته تقريباً خصصت لهذا الغرض، وتصميمه المعماري وزخرفته ونقوشه ومعالمه التراثية لا تقل أهمية وروعة عن قصور المدينة المحرمة التي سبق الحديث عنها، بل إنه يفوقها كثيراً في بعض النواحي الجمالية والفنية والمعمارية، ويقع في مكان خلاّب يجمع بين السهل والجبل، حيث تطل مبانيه على بحيرة واسعة تحفها غابات مترامية الأطراف، وهو ما أضاف جمال الطبيعة إلى روعة الزخرفة والبناء، فالمناظر الخلاّبة التي لا يوجد لها مثيل في العاصمة بيجين هي أول ما يصادف الزائر وتقع عليه عيناه عند ولوجه من البوابة الرئيسية، ويتمثل المشهد في بحيرة عظيمة تحيط بها التلال المرتفعة المكسوة بالخضرة والأشجار المتشابكة، والتي يقع في محيطها القصر الصيفي «سكن الامبراطور وعائلته»، الذي تتوزع حوله أماكن الاستراحة ومبان خاصة بالاستقبال والأنشطة الترفيهية والمسرح، ويلتقي في أفقه السماء والماء والخضرة.

كما يحيط بالقصر الصيفي عن بُعد مواقع مخصصة ومحصنة للحراسة، ويمر الزائر منذ عبوره البوابة الرئيسية من خلال ممر مسقوف بأخشاب الصنوبر المصقولة والمنقوشة والمزخرفة بأنماط من الرسوم الملونة التي ترمز إلى قصص تراثية صينية قديمة، كالطيور والأسماك والزهور والحشرات وغيرها من كائنات الطبيعة، وتقدّر تلك الرسوم بأربعة عشر ألف رسم تحيط الزائر خلال عبوره هذا الممر الطويل الذي يبلغ طوله (٧٢٨) متراً، ويعتبر بذلك أطول ممر مسقوف في العالم، وتتحلى الرسوم التي تتخلل تلك المسافة بكمٍ هائل من الإبهار والروعة، وقد أُعد هذا الممر في الأساس لنزهة الامبراطور على حافة البحيرة، وصمم بطريقة تضمن وقايته من وهج الشمس وزخات المطر خلال نزهته وأثناء صعوده إلى القصر عبر درجات وسلالم واسعة، بحيث تصبح البحيرة تحت مرمى بصره، وبذلك تشكل هذه الموانع الطبيعية والاصطناعية حماية أمنية للقصر ومحيطه وعزلاً كاملاً لهما عن السكان.

كما توجد سفن صغيرة وقوارب تجوب البحيرة، خصصت حالياً لمَنْ يرغب من السيّاح في التجول فيها، وأشهرَ هذه السفن السفينة المرمرية المزينة بالنقوش والزخارف، والتي كانت مخصصة لنزهة الامبراطور وأفراد عائلته يستقلونها إلى جزيرة صغيرة وسط البحيرة شيّدت فيها عدد من المباني، إضافةً إلى استراحة وبعض المرافق الأخرى، كقاعة الحفلات وصالات شرب الشاي، والتي أصبحت اليوم متحفاً صغيراً يُباع فيه بعض الأدوات والتحف، ويُذكر أن الامبراطور «تشيان لونغ» من أسرة «تشينغ» جمع المعماريين من كل مكان في الصين، وشيّد هذا القصر عام ١٧٥٠م تكريماً لوالدته الأرملة في عيد ميلادها في أروع تجسيد للترابط الأسري، وطاعة الوالدين التي تعد من صميم الحياة الاجتماعية الصينية منذ القدم، وحرص في نفس الوقت على أن يتضمن تراث الصين الفني والمعماري في كافة أرجائه ونواحيه، ليصبح تحفة معمارية فريدة أدرجتها منظمة اليونسكو ضمن قائمة التراث العالمي التي ينبغي الحفاظ عليها، باعتبارها إرثاً إنسانياً عالمياً، ويعد القصر الصيفي أكبر حديقة امبراطورية باقية في الصين حتى اليوم.

القصر الصيفي متنزّه امبراطوري قديم ومعلم سياحي رائع حديث

التنوع الحيوي والتفرد العمراني والرسومات التشكيلية.. مكونات القصر الصيفي

□ احد ممرات القصر الصيفي .. المسقوفة والمطرزة بالنقوش والزخارف.

□صورة للأبواب في المدينة المحرمة وتوضح المسامير وطريقة وضعها